مجلة
دراسات إنسانية

تصدرعن جامعة مستغانم
ISSN: 2437-119X

العـدد: 03 (2017)، ص ص05- 26

برج بابل ونظرية اختلاف اللغات

باقر جاسم محمد*

كلية الآداب، جامعة بابل (العراق)

تاريخ الاستلام: 2016/06/06 تاريخ النشر: 2017/12/20

الملخص:

لا شك أن لبابل وحضارتها تأثيرا كبيرا في شتى حضارات العالم. وقد اتخذ هذا التأثير صورا متباينة. ومن الثابت تاريخياً أن بابل تعد معلماً حضارياً مهماً في بعض العلوم مثل الرياضيات والفلك والقانون. بيد أن أثر بابل في الثقافات والحضارات الأخرى لن يتوقف على ما أبدعه البابليون في شتى مظاهر الحضارة فقط، وإنما يتسع ليشمل ما ينسب إلى بابل وبرجها الشهير من تأثير حاسم في مسألة مهمة هي مسألة اختلاف اللغات. إذ بعد أن كان البشر يتكلمون لغة واحدة، كما تقول الرواية التوراتية، فإن السؤال الذي ما زال قائماً يدور حول علاقة برج بابل بنظرية اختلاف اللغات؟ وما الذي تقدمه المعارف المتراكمة عن تاريخ مدينة بابل وعن مسار تطور اللغات في العالم القديم للوصول إلى فهم أفضل لمدى دقة النظرية التوراتية بخصوص اختلاف اللغات؟

الكلمات المفتاحية: برج بابل؛ اللغات؛ نظرية الاختلاف.

Abstract :

There is no doubt that Babylon and its civilization have had a great influence on the various civilizations of the world. This effect has taken different forms. It is historically proven that Babylon is an important civilizational landmark in some sciences such as mathematics, astronomy and law. However, the impact of Babylon on other cultures and civilizations will not only depend on the innovations of the Babylonians in various aspects of civilization, but also extend to include the decisive influence attributed to Babylon and its famous tower on an important issue, which is the issue of the difference in languages. After people used to speak one language, as the biblical

* **باقرجاسم محمد**، كلية الآداب، جامعة بابل (العراق) bagir_m@yahoo.com

narrative says, The question that still exists revolves around the relationship of the Tower of Babel to the theory of different languages? And what does the accumulated knowledge of the history of the city of Babylon and the course of the development of languages in the ancient world provide for a better understanding of the accuracy of the biblical theory regarding the difference of languages?
Keywords: Babel Tower; Languages; difference theory.

1. مقدمة:

لا شك أن لبابل و حضارتها تأثيراً كبيراً في شتى حضارات العالم. و قد اتخذ هذا التأثير صوراً متباينة. ومن الثابت تاريخياً أن بابل تعد معلماً حضارياً مهماً في بعض العلوم مثل الرياضيات والفلك والقانون. بيد أن أثر بابل في الثقافات والحضارات الأخرى لن يتوقف على ما أبدعه البابليون في شتى مظاهر الحضارة فقط، وإنما يتسع ليشمل ما ينسب إلى بابل وبرجها الشهير من تأثير حاسم في مسألة مهمة هي مسألة اختلاف اللغات. إذ بعد أن كان البشر يتكلمون لغة واحدة، كما تقول الرواية التوراتية، فإن السؤال حول الكيفية التي تحولت فيها اللغة الواحدة إلى لغات شتى ما زال قائماً. فما هي حقيقة علاقة برج بابل بنظرية اختلاف اللغات؟ و هل تقدم لنا المعارف المتراكمة عن تاريخ مدينة بابل و عن مسار تطور اللغات في العالم القديم أية معونة علمية للوصول إلى فهم أفضل لمدى دقة النظرية التوراتية بخصوص اختلاف اللغات؟ و لكن، قبل الشروع في الإجابة على هذين السؤالين، لا بد لنا الإشارة إلى ضرورة البحث في قضية مهمة أخرى تترابط مع مسألة اختلاف اللغات ترابطاً وثيقاً، ألا وهي مسألة أصل اللغة الأول، وهي مسألة شائكة أخرى ورد ذكر لها في التوراة وفي كتب سماوية وغير سماوية أخرى. والحقيقة أم مسألة أصل اللغة أو اللغات البشرية من أهم القضايا المثيرة للجدل بين المؤرخين والمختصين بالدراسات اللاهوتية واللسانية. فهل اللغة، أو اللغات، هبة ربانية كما يقول أصحاب نظرية الأصل الإلهي للغة؟ أم أنها نتاج تطور التركيب التشريحي للكائن الإنساني، وذلك لوجود الحلق الذي يقع بين الحنجرة وبداية التجويف الفم، وهو جزء لا يوجد نظير له في سواء عند الكائنات الشبيهة بالإنسان أو عند سواها؟ أم أنها نتيجة لتقليد أصوات الطبيعة و

الحيوان؟ أم أنها نتيجة التطور الحاصل في النداءات غير الكلامية التي كان البشر البدائيين يطلقونها أثناء العمل الجماعي؟ أم أن أصل أصوات اللغة يتمثل في تلك الأصوات التي يطلقها البشر عند الإحساس بمشاعر إنسانية مثل الألم والغضب والفرح (Yule, G., 1985, PP. 7-9). هذه هي حزمة الأسئلة والقضايا التي سنحاول البحث فيها لكي نتوصل إلى فهم أعمق للنظرية التوراتية في اختلاف اللغات.

2. في النظرية الدينية لأصل اللغات:

كما سبق القول، فإن البحث في نظرية اختلاف اللغات، يقتضي أولاء البحث في نظرية أصل اللغة أو اللغات البشرية لما بين النظريتين من وشائج واضحة و قوية. ومع أن تاريخ اللسانيات الحديثة يظهر أن مسألة أصل اللغة قد عُدت من الأمور الخلافية التي لا يمكن الركون فيها إلى دليل قاطع، إلا أن ذلك لن يحول دون مناقشة بعض ما ورد بشأنها في المصادر اللاهوتية للوقوف على التصورات الأولى بشأنها، ومن ثم الانطلاق إلى البحث في نظرية اختلاف اللغات التوراتية وعلاقتها ببرج بابل. إذ كما هو معلوم للمشتغلين في اللسانيات، فإن النظريات بِشأن أصل اللغة البشرية تنقسم إلى مجموعتين: (أ) النظريات التوقيفية أو الدينية، و(ب) النظريات الاصطلاحية أو الوضعية أو الطبيعية. ففي المجموعة (أ) هناك النظرية المستمدة من التراث اليهودي المسيحي التي ترى أن الرب هو من طلب من آدم تسمية الأشياء، وهو نفسه من بلبل ألسنة الناس بعد ذلك؛ و النظرية المصرية القديمة التي تذهب إلى أن واهب اللغة للبشر هو الإله رع **Ra** أو الإله **Thoth**، والنظرية البابلية التي ترى أن الإله نابو **Nabu** هو من منحنا اللغة، والنظرية الهندوسية التي تعتقد بأن الإلهة **Sarasvati** هي من أعطتنا اللغة، ثم النظرية الإسلامية التي تذهب إلى أن الله جل وعلا هو من منح اللغة لآدم. ولعل أشهر هذه النظريات الدينية حول أصل اللغة تلك النظرية الدينية المستمدة من العهد القديم (التوراة) والسائدة في الغرب. وتزعم

هذه النظرية وجود أصل واحد للغة يستند إلى الرواية التوراتية في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: 19-20، و قد جاء فيها:

"Now the Lord God had formed out of the ground all the wild animals and all the birds in the sky. He brought them to the man to see what he would name them; and whatever the man called each living creature, that was its name. So the man gave names to all the livestock, the birds in the sky and all the wild animals".

وهذه ترجمتنا لهذا النص التوراتي:

"الآن خلق الرب كل بهيمة وحشية و كل طير من الطين، وجاء بها إلى آدم لير ماذا سيسميها: وكل اسم أطلقه آدم على أي نوع من المخلوقات الحية، فقد صار اسما له منذئذ، و أعطى آدم اسماءً لكل الأنعام ولكل طير في الهواء، ولكل دابة ووحش."**(Holy, B., 2011)**

ومن الواضح من هذا النص التوراتي في أصل اللغة يبقى غامضاءً لأن عملية التسمية أو ما يعرف بالإنجليزية **nomenclature**، و استناداءً إلى النص التوراتي نفسه، جاءت لاحقة لوجود اللغة لأن سيدنا آدم قد استخدم اللغة في تسمية المخلوقات حال أن طُلب الرب منه ذلك، ودون أن نعرف كيف أن الرب، بالمفهوم التوراتي، قد وهبها له، أو كيف علمها لآدم، ومتى تعلمها قبل شروعه في تسمية المخلوقات. و من الواضح أن ابتكار آدم لمفردات اللغة، حسبما جاء في التوراة، قد اقتصر على الأسماء دون ذكر شيء عن الأفعال والصفات وغيرها من أجزاء الكلام، وهذا يثير سؤالا حول إمكان التخاطب باستخدام الأسماء فقط. و لكننا يمكن أن نلتمس تفسيراءً لهذا الصمت عن ذكر أجزاء الكلام الأخرى على أنه نوع من التعبير البلاغي حين يذكر الجزء ولكن الدلالة تنصرف إلى الكل.

لعل من المهم أن نشير إلى أن الرؤيا التوراتية لعملية التسمية الأولى التي مارسها آدم بناء على طلب الرب تمثل رمزياً أول ممارسة لسانية عملية يقوم بها الإنسان. ولكننا نلاحظ أن هذه الممارسة كانت مجردة من سياقات الاتصال الاجتماعية التي نألفها حينما نستعمل اللغة لأنها جاءت تلبية لأمرٍ إلهي. وبالمقارنة، فإن الرؤيا الإسلامية لمسألة اكتساب الإنسان للغة تخالف الرؤيا التوراتية في نواح مهمة. وقد وردت الرؤيا الإسلامية في القرآن الكريم في قوله تعالى: "وَ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ...". (سورة البقرة، الآية 31) ففي هذه الآية، تكون اللغة، ممثلة بالأسماء، هبة من الله جل وعلا لآدم وتعليماً من لدنه له. وهذا مما يفصح عن طريقة تلقي آدم للغة. وهناك اختلاف آخر في سياق هذه الآية ذو طابع حواري لأنها ترد في مقام الكلام الذي دار بين الله جل وعلا والملائكة. أما مسألة اختلاف الألسنة أو اللغات فإن النظرية الإسلامية تعتمد على الآية الكريمة: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ" سورة الروم، الآية 22. ويمكن أن نلاحظ أن اختلاف ألسنة البشر وألوانهم قد جاء معطوفاً على عملية الخلق نفسها حتى ليمكن القول أن البشر قد خلقوا مختلفين في اللسان وفي الألوان، ذلك لأن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عن الكيفية التي تحول فيها البشر من اللغة الواحدة إلى اللغات المختلفة.

إذن، فإن مسألة أصل اللغة، و هي من أهم القضايا المثيرة للجدل بين المؤرخين و المختصين بالدراسات اللسانية، لا تجد سبيلاً لجواب شافٍ. فهل اللغات هبة ربانية كما يقول أصحاب نظرية الأصل الإلهي للغة؟ أم أنها نتاج تطور التركيب التشريحي للكائن الإنساني، وذلك لوجود الحلق الذي لا يوجد نظير له في الكائنات الشبيهة بالإنسان؟ أم أنها نتيجة لتقليد أصوات الطبيعة والحيوان؟ أم أنها نتيجة تطوير النداءات البدائية التي كان البشر البدائيين يطلقونها أثناء العمل الجماعي؟ أم أن أصل أصوات اللغة يتمثل في تلك الأصوات التي يطلقها البشر عند الإحساس بمشاعر إنسانية مثل الألم و الغضب والفرح. وعلى أية حال فإن القول بنظرية ما لن ينهي الجدل لأن المسألة برمتها تفتقر إلى المعطيات الملموسة التي ترتقي إلى مصاف الدليل العلمي الدامغ الذي يضع حداً لأية شكوك قد يثيرها

هذا الطرف أو ذاك. ولكن الحقيقة أن نظرية أصل اللغة لا تقدم سوى بعض الحل لمسألة أخرى تخص القدرة البشرية على الكلام بلغات مختلفة. فإذا كانت اللغة البشرية الأولى واحدة، فما الذي أدى إلى أن تختلف اللغات اختلافاً واسعاً؟ و كيف تحول هذا الاختلاف، بمرور الأزمان، إلى عائق كبير يحول دون التفاهم بين كثير من الأقوام والمجموعات البشرية؟ فنحن نعرف من خلال الأطلس اللغوي أن لدينا من اللغات ما يتجاوز عدد الأعراق والقوميات بكثير. وهذا يطرح مسألة مهمة هي أن وحدة الأصول العرقية للبشر، إن كانت حقيقة تاريخية، إنما هي وحدة مقترنة بوحدة الأنموذج اللساني أو وحدة اللغة التي تحدث بها البشر في البداية، وهو ما يقتضي وجود نظرية ثانية مكملة تقدم تفسيراً للتعارض بين وحدة اللغة الأولى وواقع الاختلاف الواسع بين اللغات.

و حين نعود إلى علاقة برج بابل المدرج (إيتيميننانكي) المفترضة بالنظرية التوراتية التي تفسر اختلاف اللغات نجد أنها النظرية الدينية الوحيدة التي تشير إلى هذه القضية الشائكة وتحاول، في الوقت نفسه، أن تقدم تفسيراً لها. فقد وردت هذه الرواية لمسألة اختلاف اللغات في التوراة، وتحديداً في سفر التكوين وفي الإصحاح 11 الفقرات 1-8 على النحو الآتي:

> "Now the whole earth used only one language, with few words. On the occasion of a migration from the east, men discovered a plain in the land of Shinar, and settled there. Then they said to one another, "Come, let us make bricks, burning them well. "So they used bricks for stone, and bitumen for mortar. Then they said, "Come, let us build ourselves a city with a tower whose top shall reach the heavens (thus making a name for ourselves), so that we may not be scattered all over the earth. "Then the Lord came down to look at the city and tower which human beings had built. The

Lord said, "They are just one people, and they all have the same language. If this is what they can do as a beginning, then nothing that they resolve to do will be impossible for them. Come, let us go down, and there make such a babble of their language that they wilt not understand one another's speech. Thus the Lord dispersed them from there all over the earth, so that they had to stop building the city. Therefore its name was called Babel, because there the LORD confused the language of the whole earth; and from there the LORD scattered them abroad over the face of the whole earth." (GENESIS 11:1-9).

وترجمة النص:

"في تلك اللحظة كان كل من في الأرض يستعملون لغة واحدة فقط، و هي لغة ذات كلمات قليلة. وعند الهجرة من الشرق، اكتشف البشر سهلاً في أرض شنعار،[الاسم العبراني لجنوب العراق. الباحث] فاستقروا هناك. ثم قال بعضهم لبعض، "تعالوا، نصنع الآجر، ونشويه بالنار على نحو جيد." وهكذا استعملوا الآجر بديلاً للحجر، والقار بديلاً للملاط. ثم قالوا، "تعالوا، هلموا نبني لأنفسنا مدينة كبيرة لها برج تبلغ قمته السموات (حتى نجعل لأنفسنا سمعة و صيتاً)، وحتى لا نتفرق في أرجاء الأرض. "ثم نزل الرب لينظر إلى المدينة والبرج اللذين بناهما بنو البشر. قال الرب، "إنهم شعب واحد فقط، وهم جميعاً يتكلمون لغة واحدة. فإذا كان هذا ما يقدرون عليه في البدء، لن يكون هناك أمر محال يحول بينهم و بين تحقيق ما يرومون. فهيا،لننزل، ونجعل من لغتهم هذراً وهذياناً/ لنبلبل لغتهم حتى لا يعودوا يستطيعون فهم

كلام بعضهم البعض." وهكذا شتتهم الرَّبُ في كافة أرجاء الأرض، وذلك حتى يتوقفوا عن بناء المدينة. وبذلك كان اسمها بابل، لأن الربَّ قد بلبل لغتهم".

وهناك ترجمة أخرى وردت في النسخة العربية من التوراة لهذا النص نورده في أدناه:

"كَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً. 2 وَحَدَثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ. 3 وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : «هَلُمَّ نَصْنَعُ لِبْنًا وَنَشْوِيهِ شَيًّا». فَكَانَ لَهُمُ اللِّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ، وَكَانَ لَهُمُ الْحُمَرُ مَكَانَ الطِّينِ. 4 وَقَالُوا: «هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ». 5 فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. 6 وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. 7 هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». 8 فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ، 9 لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا »بَابِلَ» لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ .وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ".(النص العربي الإصحاح 11. 2011).

وقبل البدء في بحث الأسئلة التي أثرناها، لا بد من ملاحظتين مهمتين: الأولى، أن المكان المفترض الذي جاء منه كل البشر، حسب النص الإنجليزي للتوراة، إنما يقع إلى الشرق من سهل شنعار أو بلاد ما بين النهرين. وهذا ما يفهم من عبارة " **On the occasion of a migration from the east**"، وهو ما أثبتناه في ترجمتنا للنص. أما ما ورد في النسخة العربية من الكتاب المقدس فهو كالآتي: "و حدث في ارتحالهم شرقاً" وهو ما يعني أنهم كانوا يقطنون إلى الغرب من سهل شنعار و لذلك فإنهم قد ارتحلوا شرقاء وهذا التناقض بحاجة إلى بحث خاص يستقصي دراسة النص العبري والنص اللاتيني للتوراة ومعرفة سبب هذا التناقض الواضح، وهل هو من أخطاء الترجمة. والثانية أن ما ورد من أن مدينة بابل

اكتسبت اسمها نتيجة لبلبلة الرب للسان أهلها ليس دقيقاء فاسم مدينة بابل مأخوذ من اسم بابل باللغة الأكدية، وهو: "باب إيلو"، أي "باب الآلهة" لأن من المعروف أن مدينة بابل كانت من المدن المقدسة التي ضمت ما يعرف بمجمع الآلهة حسب عقائدهم.

ظاهرياءيؤكد هذا النص التوراتي أن مشروع بناء برج بابل المدرج (إيتيمينانكي) أو E-**(temen-an-ki)** ويعني بيت مؤسسة السماء على الأرض، كان تعبيراءعن طموح إنساني يعبر عن روح الفخر و التباهي بين البشر، فالبرج يجب أن يرتقي في الأعالي حتى يجعل بناته لأنفسهم صيتاء كما جاء في النص، ولا توجد أية إشارة إلى الرغبة في تحدي الرب، وهو مما يتعارض مع ما نفهمه من اسم مدينة بابل في الأكدية الذي يشير إلى باب الإله.(4) وهو في الإغريقية**Βαβυλών**، وبذلك ينصرف معنى اسم بابل إلى عبادة الآلهة ولا علاقة له بعملية بلبلة الألسن. إذن فقد فشل بناء البرج ليس لأسباب فنية أو تكنولوجية إذ لا توجد فيه أية إشارة إلى مثل هذه الأسباب، وإنما يعود فشل المشروع برمته إلى أسباب تتعلق بخوف الرب من البشر، ومن قدراتهم على البناء التي ربما تدفعهم إلى تحدي الرب نفسه! ويظهر تحليل هذا النص أن الرؤيا التوراتية لاختلاف اللغات لم تكن وليدة تصور ديني عراقي أو بابلي عرفته الحضارة العراقية نتيجة تأمل في هذه المسألة، و إنما هو تصور عبراني كان نتيجة لعيش هؤلاء العبرانيين الذين أسرهم نبوخذ نصر (الذي حكم للفترة من 604 ولغاية 562 قبل الميلاد تقريباء) وجلبهم إلى بابل فيما يعرف بالسبي البابلي. و في بابل العظيمة تعرف العبرانيون على اختلاف لسانهم عن اللسان الأكدي الذي كان سائداءفي بابل في ذلك الحين، فضلاءعن أن بابل كانت عاصمة لدولة قوية وواسعة النفوذ والتأثير مما جعل بعضاءمن أبناء الشعوب الأخرى يأتون إليها للتجارة أو لأسباب سياسية (أنظر خارطة الإمبراطورية البابلية في الملحق حيث يظهر أنها كانت تشمل مناطق واسعة تضم شعوباءمتعددة وهي شعوب تتحدث بلغات مختلفة، ومن هذه الشعوب العبرانيون). وهذا مما يجعل من ظاهرة اختلاف الألسن واضحة وملموسة تماماءفي بابل القديمة.

وتظهر المقارنة بين بعض الرسوم أن صورة برج بابل المتخيلة استناداءإلى الرواية التوراتية تختلف كلياءعن صورة البرج المرسومة استناداءإلى المعطيات الأثرية. وفالصور المتخيلة التوراتية يبدو فيها البرج ذا ارتفاع شاهق للغاية حتى لا يكاد البصر يرى قمته. وهو ارتفاع لا يمكن تحقيقه مطلقاءباستعمال مواد البناء ووسائله في الفرات الأوسط في تلك الأزمنة القديمة. بينما تكون الصورة المستندة إلى المخلفات الأثرية في موقع البرج و بعض الآثار الموجودة في متحف اللوفر أن طبقات البرج لم تزد على سبع و أن ارتفاعه لم يتجاوز 91،48 متراءأو 91،66 متراء وهو ارتفاع معقول ويتناسب مع أبعاد قاعدته التي تكاد تتساوى مع الارتفاع. (راجع الصور ومخطط البرج في الملحق)

ولو عدنا إلى أسباب فشل بناء البرج، على وفق ما يرويه سفر التكوين، فإننا سنلاحظ، أن بناة البرج يتوفرون على أسباب عديدة للنجاح في عملهم. وهذه الأسباب هي:

1. وجود بنية سياسية واقتصادية واجتماعية لا تتيسر إلا مع وجود كيان مديني واضح المعالم ووجود دولة قوية، تسمح باتخاذ قرار بناء ضخم للغاية وتوفر له المستلزمات المادية والبشرية. ولكن المشكلة تنجم من افتراض أن البنية السياسية للدولة القوية، بحسب التوراة، تبدو سابقة لقرار إنشاء مدينة بابل وليس لاحقة لها زمنياء
2. المهمة الواضحة، إذ بحسب سفر التكوين، تتلخص هذه المهمة في النص: "تعالوا، هلموا نبني لأنفسنا مدينة كبيرة لها برج تبلغ قمته السموات (حتى نجعل لأنفسنا سمعة وصيتاء" وهذا يتناقض مع ما نعرفه في الأركيولوجيا من أن نشوء المدن الأولى في الحضارات القديمة لم يكن بأمر من حاكم أو ملك أو نتيجة تصور أو قرار مسبق من الجماعة البشرية بقدر ما كان هذا النشوء عفوياءوتدريجياءويأخذ زمناء طويلاءنتيجة التطور الاقتصادي والحضاري والسياسي. وفضلاءعن ذلك، فإن نشوء مدينة بابل نفسها لم يكن نتيجة قرار اتخذته جماعة معينة لأسباب ليست واضحة تماماءكما في النص التوراتي.

3. وجود خطة هندسية مناسبة لتنفيذ بناء المدينة والبرج بافتراض أن هذه مدينة بابل هي الأولى في الحضارة البشرية. وهو افتراض ينقضه ما نعرف من أن مدناء أخرى كثيرة وجدت قبل بابل في جنوب العراق، مثل مدن أوروك وأور وسبار، وفي مناطق أخرى من العالم القديم، مثل أريحا**(Holy, B., 2011, p08)**.
4. تيسر القوة الاقتصادية و الخبرة البشرية اللازمين للبناء الذي يفترض وجود سلطة تستطيع أن تستثمر ذلك في مشروع ضخم مثل بناء مدينة وبرج.
5. تيسر المواد اللازمة للبناء، و لعل خلو منطقة وسط سهل شنعار من المواد الحجرية اللازمة للأبنية الضخمة قد أوجب عليهم ابتكار صناعة الآجر، أو الطابوق، من الطين ليدخل في مجال معالجة نقص الحجر في منطقة بابل. و قد أشار النص التوراتي إلى الغرض من صناعة الآجر بوضوح. كما أشار أيضاءإلى استعمال القار بديلاءللملاط. و هذا جزء مهم من تكنولوجيا البناء آنذاك (أصل اسم بابل: الموسوعة الحرة ويكيبيديا. تاريخ الزيارة 2012/6/3).
6. تيسر الوقت اللازم، و تشير بقايا الأحجام الكبيرة لبعض الأبنية في موقع مدينة بابل الأثرية إلى أن أهل بابل كانوا يألفون أعمال البناء الضخمة، و ما تقتضيه من وقت طويل لإنجاز بناء ضخم بحجم برج بابل المفترض. هذا فضلاءعن وجود أبنية كثيرة على طراز الزقورة أو برج بابل في أنحاء متفرقة من بلاد وادي الرافدين(أندرية، 1954. ص. 6).

وإذا كانت هذه الأسباب كافية لنجاح بناء البرج، فما الذي أدى إلى فشل البناء؟ مرة أخرى فإننا، وبالاستناد إلى رواية سفر التكوين نفسها، نجد أن الأمر الجوهري الذي يفتقر إليه بناة البرج الذي أدى إلى فشلهم في إنشاء البرج في نهاية المطاف ومن ثم أدى إلى تفرقهم في الأرض إنما هو انعدام اللغة المشتركة أو وسيلة التفاهم. وهو أمر كانت نتيجته انعدام التواصل بين أفراد الجماعة البشرية في بابل. وقد ترتب على ذلك فقدان التنظيم

لأنهم فقدوا القدرة على الكلام مع بعضهم البعض، وفقدوا القدرة على التعاون لإنجاز عمل ضخم. وحين لا يكون هناك تعاون، يتعثر العمل، بل يتوقف تماماً.

وبناءً على النتائج التي ترتبت على اختلاف ألسنة بناة برج بابل المدرج (إيتيمينانكي)، يمكننا أن نضيف إن الافتقار إلى التواصل نتيجة الاختلاف في الألسنة قد أدى إلى نشوء حواجز نفسية و ثقافية مما أدى إلى النزاع وإلى المشاعر السلبية والغيرة وشيوع البغضاء بين الأفراد والجماعات. وهكذا أخذت كل جماعة تنتبذ لنفسها مكاناً بعيداً عن الجماعات الأخرى مفضلة العزلة على التعاون والحوار. وقد أحدث ذلك نوعاً من التباين الثقافي.

وبصدد اللغة وما تنطوي عليه من خزين ثقافي، يقول بول بلوم: "أن كل لغة تحتوي في داخلها على الميتافيزيقا الخاصة بها – و على إحالاتها الضمنية فيما يخص أي من أجزاء الواقع يمكن عدُّه جديراً بالحديث فيه، وكيف يمكن ربط هذه الأجزاء مع بعضها." (**Paul, B.,2002**).وهذا يعني أن الاختلافات في اللغات نتيجة حتمية لاختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكل مجموعة بشرية، وليس لأمر دبره آله بني إسرائيل الغاضب.

إن ما ورد في التوراة من قصة لاختلاف اللغات و لتفرق البشر في الأرض وتحولهم إلى أمم مختلفة لساناً وثقافة يترتب عليها نتيجتان لاختلاف الأمم والشعوب. الأولى أن البابليين هم أصل الشعوب الأخرى، وهي مسألة ينكرها علم الأنثروبوجيا، والثانية أن تلك الشعوب قد ورثت من البابليين اختلاف الألسنة. ولكن الأدلة التاريخية والأركيولوجية واللغوية، كما يذكر المتخصصون، تثبت أن شعوباً أخرى كانت تسكن في أرجاء الأرض، وهي شعوب أنشأت مدناً عظيمة قبل ظهور مدينة بابل، وسواء أكان ذلك في جنوب بلاد ما بين النهرين حيث أنشأ السومريون مدناً عظيمة مثل مدينتي أريدو وأور وسبار، أو في وادي النيل حيث ظهرت الحضارة الفرعونية في زمن قريب جداً من زمن ازدهار الحضارة السومرية، أو في وادي نهر الكانج في الهند حيث ظهرت حضارة عظيمة وأنشأت مدناً كبيرة. وقد تميزت كل هذه الحضارات والمدن السابقة لظهور مدينة بابل بكونها ذات لغات مختلفة اختلافاً جذرياً ويعتقد أحد المتخصصين بدراسة آثار العراق القديم أن بعض المدن السومرية،

مثل سبار، تعود إلى فترة ما قبل الطوفان. (دروثي ،1961. الصفحات 31، 32، 73، 89)، ويشير الباحث مايكل سميث إلى حقيقة أن مدينة أوروك هي أقدم مدن العالم، و أن الانتقال من الحياة القبلية البدوية إلى مستوى الدولة قد حدث على نحو مستقل و في مناطق مختلفة من العالم بعد الألف الثالث قبل الميلاد. وأنه ما أن ظهرت المجتمعات المعقدة حتى أصبح ظهور المدن أمراءمحتماء (**Smith, M., 2002, p.5-6**). ومن الغريب ألا يرد ذكر مدينة بابل في الجداول الثلاثة التي تضمنها كشاف مدن العالم القديم التي ظهرت بين 3500 و1200 قبل الميلاد، و نشره جورج مودلسكي (**Modelsky, G., 1997**) من جامعة واشنطن في العام 1997. وهذا الرأي تؤكده المعرفة العلمية الأركيولوجية والتاريخية واللسانية. لذلك يمكن الاستنتاج أن نظرية اختلاف اللغات اللاهوتية التي وردت في التوراة تفتقر إلى الأدلة من الناحيتين الأركيولوجية والتاريخية، وتتناقض مع النتائج التي توصلت إليها الدراسات اللسانية بخصوص قضية اختلاف اللغات. ومن هنا يمكننا القول أنها نظرية يتعذر القبول بها علمياء

وإذا كان سفر التكوين قد تضمن أول إشارة رمزية إلى جذر الاختلاف بين أهل بابل، التي لم تكتسب اسمها بعد بحسب الرواية التوراتية، إلا أنه حين يعزو فعل الاختلاف اللساني إلى أمر رباني، أو قد نقول إلى كيد رباني، فإنه يغفل العوامل الاجتماعية والسياسية والجغرافية والبيئية المختلفة التي تؤدي بالضرورة إلى اختلاف اللغات. وهكذا يظهر أن الرواية التوراتية لأسباب اختلاف ألسنة البشر ليست مما يستقيم مع المنطق الديني أو المنطق العقلي أو المنطق العلمي، فهي رواية تتناقض مع الدراسات الآثارية الحديثة و الدراسات التي تبحث في الاختلاف بين الألسن. وإذا أضفنا إلى ذلك أن التنقيبات الأثرية تشير إلى أن برج بابل ليس سوى زقورة من عدد كبير من الزقورات، و هناك زقورة مثيلة لبرج بابل تقع في منطقة بورسيبا أو برس نمرود، و أن هذه الزقورة أو البرج قد كرست للعبادة و ليس لتحدي الرب بحسب ما يقوله أندريه بارو، ذلك أن برج بابل "لم يكن تعبيراءعن كبرياء الإنسان." ويضيف بارو إلى ذلك قوله أن هذا البرج ليس "... قبضة يرفعها الإنسان تحدياءفي

وجه السماء، بل يداءيرفعها ضراعة، و صرخة يطلقها استغاثة بالسماء" (أندرية، 1954، ص. 5) وإنما معبد مكرس لعبادة الآلهة حسب الديانات التي كانت سائدة آنذاك. و هذا الرأي، الذي يستند إلى دراسة مستفيضة للطقوس التي كانت تمارس في بابل القديمة، يتعارض كلياءمع الزعم التوراتي،. و فضلاءعن ذلك، فقد أحصى بارو حوالي ثلاثين زقورة في بلاد ما بين النهرين. و هذا يظهر أن سبب الإشارة الواردة في التوراة إلى زقورة بابل، أو برجها حصراء إنما جاءت لأن العبرانيين الذين أسروا في بابل لم يكونوا على علم بوجود الزقورات الأخرى. و لذلك، يجوز لنا القول أن هناك أسباب موضوعية كثيرة تجعلنا لا نقبل هذه الرواية التي تمثل رؤيا عقدية لجماعة دينية بعينها فقط، و ذلك على الرغم من شيوعها في بحوث و دراسات كثيرة. و نعتقد أن شيوعها أنما يرجع إلى أنها قد حظيت بمكانة الرواية المقدسة في الموروث الثقافي الغربي. و من المعلوم أن الروايات المقدسة تقطع السبيل على مناقشتها علمياءلأنها تقع في حقل العقائد. و لكن المعرفة العلمية المستمدة من علوم مختلفة لن تتوقف عن مسعاها الدؤوب للوصول إلى الحقيقة. ولعل خير دليل على ما نذهب إليه أن الصور الفنية المتخيلة لمدينة بابل القديمة وبرجها التي وضعناها في الملحق تظهر اختلافاءكلياءفي حجم البرج و ارتفاعه. ويمكن تفسير هذا الاختلاف استناداءإلى كون الفنان يعتمد على الحكاية التوراتية في تصوره لبرج بابل، فيكون هائل الحجم و الارتفاع حتى أنه يطاول عنان السماء، أو أنه يعتمد المعطيات الأثرية فيكون البرج ذا حجم وارتفاع يتناسبان مع ما كانت عليه الأبنية في بابل القديمة(أندرية، 1954، ص. 6).

المراجع:

- أندرية، بارو. (1954) **برج بابل**. (ترجمة جبرا إبراهيم جبرا (1981)) بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.
- دروثي، مكاي .(1961). **مدن العراق القديمة**. (ترجمة يوسف يعقوب مسكوني). بغداد: مطبعة شفيق.
- الموسوعة الحرة ويكيبيديا، **أصل اسم بابل**. تاريخ الزيارة 2012/6/3.
- النص العربي الإصحاح 11.(2011). **الكتاب المقدس** ، ط 2. القاهرة: دار الكتاب المقدس .
- Holy, Bible. (2011). **New International Version**®, NIV® Copyright © 1973, 1978, 1984, 2011 by Biblica, Inc.®
- Modelsky, George. (1997), **Cites of the Ancient World**. Washington, University of Washington.
- Paul, Bloom. (2002). **Explaining Linguistic Diversity**", *American Science*. July-August 2002. Vol. 90, No. 4.
- Smith, Michael. (2002). **The Earliest Cites**. In George Gmelch and Walter P. Zenner (eds) Urban Life: Readings in the Anthropology of the City. 4th edition. (p.5-6) .
- Yule, George. (1985). **The Study of Language**. Cambridge, University Press. PP. 7-9.

ملحق بالمصورات الخاصة بمدينة بابل و برجها

1. صورة متخيلة لمدينة بابل و برجها المعروف باسم (أتيمينانكي) تعتمد المعطيات الآثارية

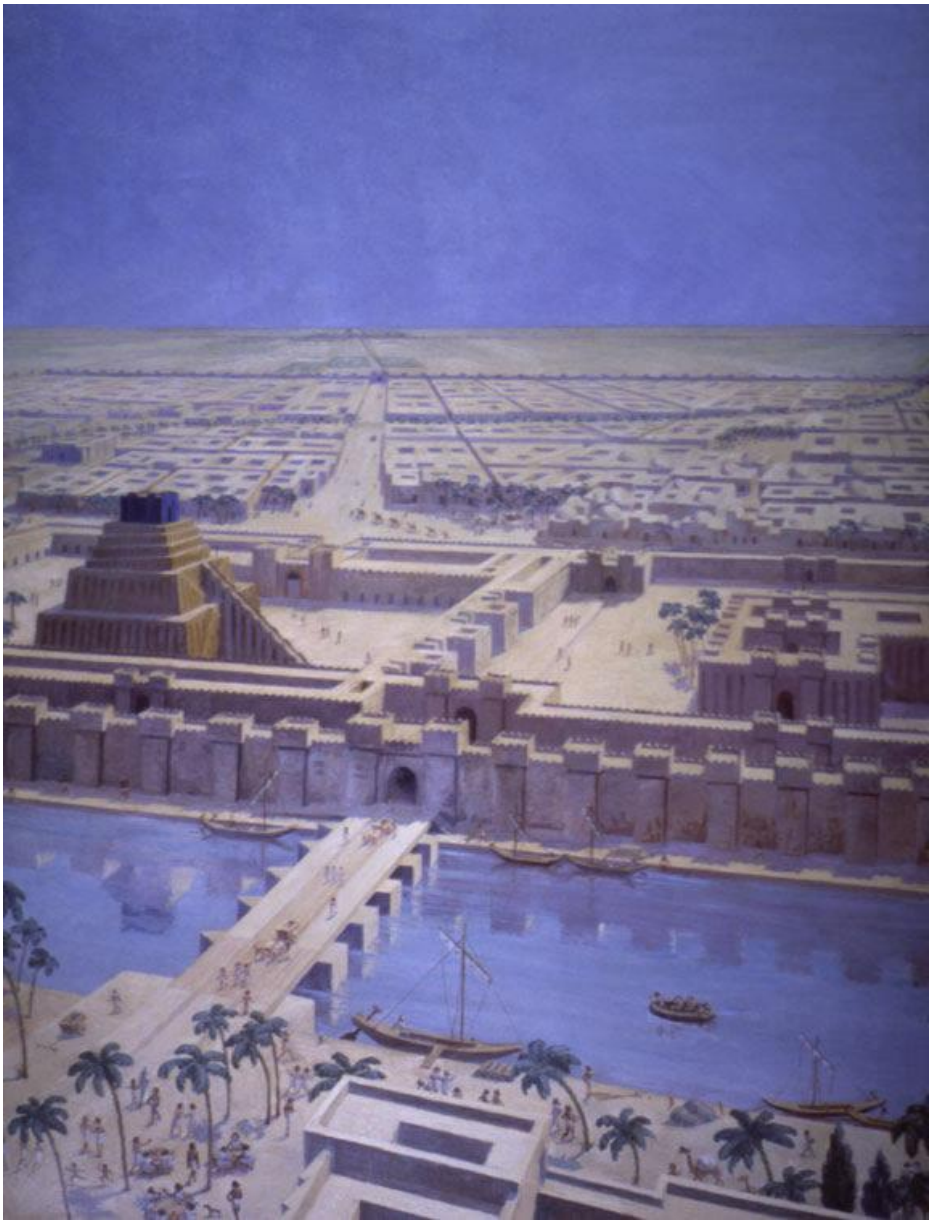

2. صورة متخيلة لبرج بابل وفيها يظهر البرج شاهقاً على نحو لا يدركه البصر انسجاماً مع منطق القصة التوراتية

3. صورة فوتوغرافية حديثة لبقايا أساسات برج بابل

4. صورة متخيلة للبرج مبنية على معطيات الحفريات الأثرية الموجودة في متحف اللوفر

5. صورة متخيلة لجنائن بابل المعلقة وعلى الضفة الثانية لنهر الفرات يظهر برج بابل وقد طاول الغيوم

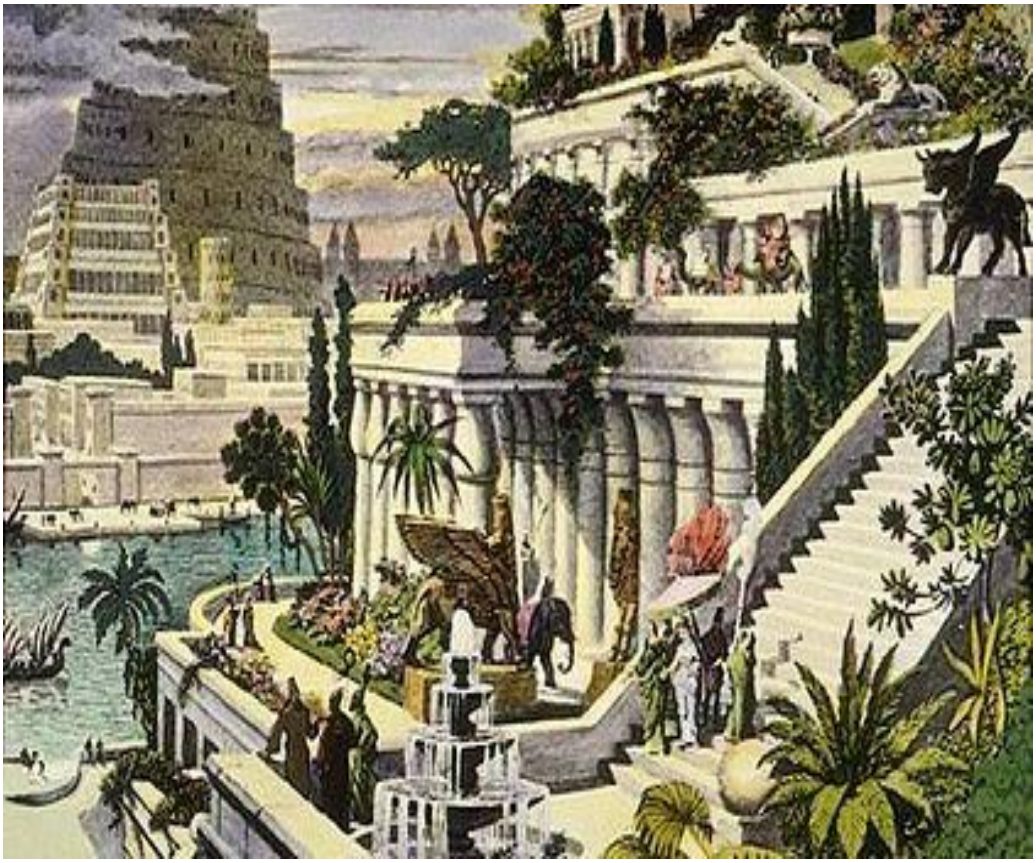

6. مخطط البنية المعمارية لبرج بابل وطبقاته السبع وسلالمه الجانبية

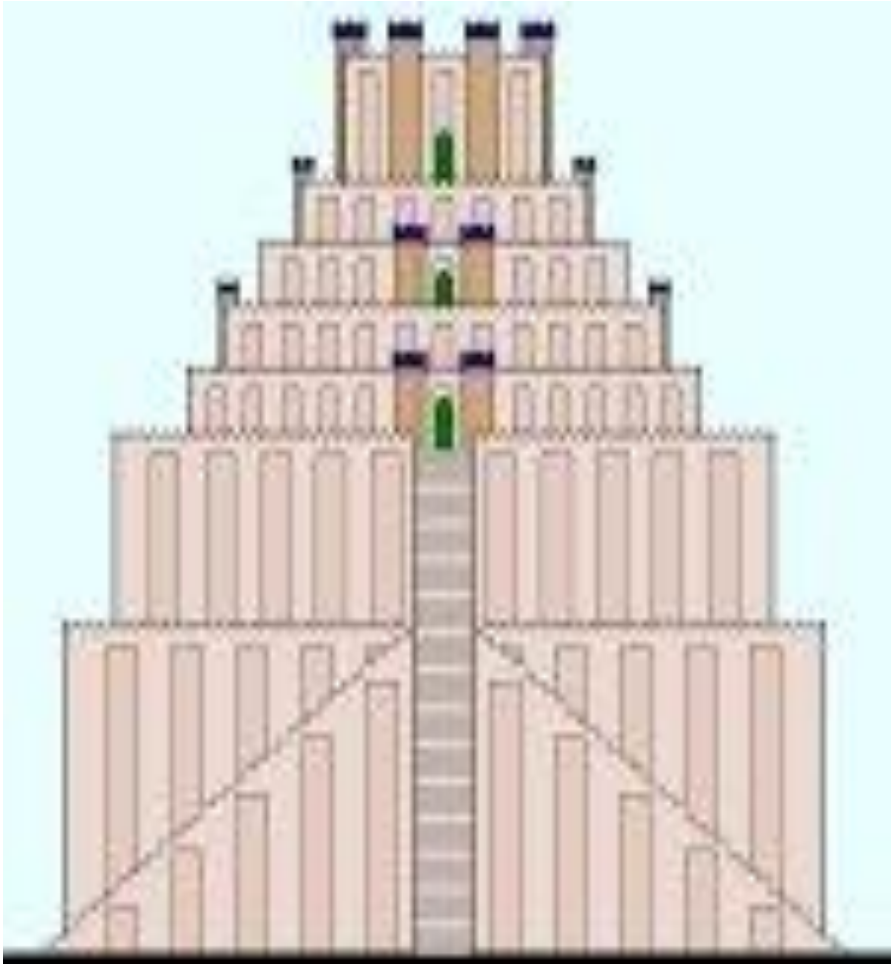

7. خارطة الإمبراطورية البابلية (من 1950 إلى 1600 قبل الميلاد) التي تمتد من رأس الخليج العربي و تضم كلاً من العراق و سوريا و فلسطين و لبنان و الأردن فضلاً عن جزء من ديار بكر